

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

لو أن أحدًا طُلب إليه أن يصف حضارة الإسلام بكلمة واحدةٍ ينعقد عليها إجماعٌ مؤرّخها والمشتغلين بدراسة شُعابها المختلفة، لكان في استطاعه أن يصفها مُطْمئنًا بـ«الحضارة النَّصِّيَّة»، بمعنى أن النصَّ الإلهيَّ المنزَّل الماثلَ في القرآن الكريم هو نطاقها المركزي، ومصدرها الرئيس الذي تستمدُّ منه أصولها المؤسَّسة وقيَمها الهادية. فكلُّ مظهر من مظاهر هذه الحضارة، وكلُّ ناحية من نواحيها، لا تعدو - عند النظرة المتأنية - أن تكون محاولةً لتحقيق معنى النص، وتجسيد حقيقته في الواقع المشهود.

وفي تاريخ الثقافة الإسلامية ما يدلُّنا في وضوح على حَفَاية المسلمين بالنص القرآني حفايةً لم تُفترَّ عبر القرون المتطاولة، وعكوفهم عليه قراءةً وفهمًا وتدبرًا واستنباطًا لما ينطوي عليه من أحكام وتشريعات، أو قيم ومبادئ. وقد أفضى كلُّ ذلك إلى أن تحوَّل القرآن إلى مبحث معرفي منذ عهد الإسلام الأول إلى تاريخه الأخير، ولا نبالغ إذا قلنا: إن الحركة العلمية الأولى في الإسلام لم تنشأ إلا بدافع من الرغبة في حفظ النص القرآني، وتحسين فهمه، والارتقاء بالأدوات المنهجية العاصمة من الزَّيغ عند تحقيق معانيه أو استنباط أحكامه. وهكذا، كانت نشأة العلوم في الإسلام وثيقة الصلة بالنص القرآني، ولسنا نعني بهذه العلوم ما اصطُلِحَ على تسميته بعلوم القرآن كالتفسير والقراءات وما إلى ذلك فحسب، وإنما نعني علوم الدين واللغة بوجه عام؛ كالفقه والأصول والكلام والتصوف والنحو والصرف والأدب والبلاغة وما إليها؛ فكلُّ أولئك موصولٌ بالقرآن، مُعْتَرِفٌ من معينه.

والحقُّ أن العناية بالقرآن - من حيث هي حقل معرفيٍّ مستقلٍّ - قد بلغت آفاقًا جديدةً في العصر الحديث، ولا سيما حين أدلى المستشرقون بدلوهم في هذا الحقل، وكان لهم في مقاربة قضاياها ومعالجة مسائله منهجٌ مغايرٌ لمعهود المناهج التي اتبعها العلماء المسلمون قديمًا وحديثًا. وقد تطورت دراسة النص القرآني على

أيدي المستشرقين بتطور المراحل التي تقلب فيها الاستشراق نفسه، واتخذت هذه الدراسة أشكالاً متباينة: ترجمة للقرآن، وبحثاً في مخطوطاته، ونشراً لمصادر تفسيره نشرًا علميًا مُحَقَّقًا، ودرسًا لُمُشَكِّل قضاياه المتعلقة بجمعه ونقله وترتيب نزوله وتأويل بعض آياته...، وما إلى ذلك مما يسعك الوقوف فيه على عشرات البحوث والدراسات التي خَطَّتْها أقلامُ المستشرقين، وتفاوتت حظوظهم فيها من النزاهة والموضوعية تفاوتها من الجودة والإتقان.

وقد بلغ الدرسُ الاستشراقيُّ لقضايا القرآن وعلومه ذروة نضجه خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وهي الحقبة التي درج الباحثون على وصفها بـ«الاستشراق العلمي» الذي تحرَّرَ إلى حدٍّ ما من بواعث التحيز الديني أو القومي أو العرقي. ولم يزل هذا الدرسُ يترقى في مدارج التطور مستفيدًا من المناهج الحديثة في تحليل النصوص حتى أمسى تخصصًا أكاديميًا جليل القدر في الجامعات الغربية، له تراثُهُ الحافل، ومعالمُهُ الواضحة، ومرجعياتُهُ التأسيسية، وأعلامُهُ المُبرِّزون.

ولا تخفى أهمية الاطلاع على ما شهدته الأوساطُ الاستشراقية والدوائر الأكاديمية الغربية في الآونة الأخيرة من جهود وافرة في دراسة النص القرآني والتأريخ له. وفي هذا الإطار تأتي هذه الترجمة العربية للكتاب المرجعي الموسوم بـ«مرجع أكسفورد في الدراسات القرآنية»، الذي صدر عن جامعة أكسفورد سنة ٢٠٢٠م، بتحرير محمد عبد الحليم ومصطفى شاه، ومشاركة طائفة متنوعة من الباحثين العرب والمسلمين ممن يكتب بالإنجليزية، جنبًا إلى جنب أقرانهم من الباحثين الغربيين.

إنه كتابٌ مرجعيٌّ بحقٍّ، يوافق اسمهُ مُسمَّاه؛ ذلك أنه لا يكاد يغادر مسألة من أصول المسائل أو قضية من أمهات القضايا في حقل الدراسات القرآنية إلا تناولها بالدرس والمناقشة، مخاطبًا العقل الحديث بلغة العصر الحديث. ففي أبواب ثمانية تنتظم سبعة وخمسين فصلاً، عرض مؤلِّفو المرجع لكثير من القضايا المتعلقة بالحالة الراهنة لحقل الدراسات القرآنية، والمحيط التاريخي الذي نشأ فيه القرآن، وما يتصل بجمعه ونقله ومخطوطاته ونقوشه ومطبوعاته، ومذاهب تفسيره وتأويله،

وأبعاده البنيوية والأدبية، وموضوعاته ومحاوره الكبرى العقدية والتشريعية والأخلاقية والسياسية... إلخ.

وقد توفّر على ترجمة هذا الكتاب باحثان ومترجمان فاضلان، هما: الدكتور حسام صبري (المدرس بقسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر)، والأستاذ مصطفى الفقي (الباحث والمترجم)؛ إذ تقاسما الكتاب فيما بينهما: مترجم الدكتور حسام الأبواب: الأول والثالث والرابع والسادس، سوى مقدمة المرجع؛ وترجم الأستاذ مصطفى الأبواب: الثاني والخامس والسابع والثامن. وقد اجتهد المترجمان ما وسعهما الاجتهاد في أن تخرج الترجمة نسقًا واحدًا مطردًا، سواء في طريقة البيان وأسلوب التعبير أو في نقل المصطلحات وضبط أسماء الأعلام. وقد راجع بعض المشاركين في هذا الكتاب ترجمات فصولهم؛ طلبًا لمزيد من الدقة والإتقان، فلهم منا وافر الشكر وعظيم التقدير.

ومما يتعيّن ذكّره أيضًا في هذا المقام أن الدكتور عبد الرحمن حِلّلي (أستاذ التفسير والدراسات القرآنية بكلية الشريعة، جامعة قطر) راجع النصّ العربيّ مراجعة دقيقة متأنّة، كما تفضّل مشكورًا بكتابة مقدمة الترجمة العربية. والشكر موصول أيضًا لوحدة التحرير والمراجعة بالمركز على ما بذلوه من جهدٍ في مراجعة الترجمة على الأصل الإنجليزي وإعداد الكشافات الفنية للكتاب.

إن كتاب «مرجع أكسفورد في الدراسات القرآنية» يقع في صميم المشروع الفكري لمركز نهوض للدراسات والبحوث؛ ولهذا وقع اختيارنا عليه لترجمته وإتاحته لقراء العربية. ولقد يعلم المتابعون لهذا المشروع أنه ينتظم عدّة محاور كبرى، منها محور الدراسات الإسلامية عمومًا، والدراسات القرآنية على وجه الخصوص. وقد أصدر المركز في هذا الصدد عددًا من الكتب المهمّة، نذكر منها: «مصاحف الأمويين: نظرة تاريخية في المخطوطات القرآنية المبكرة» لفرنسا ديروش، و«قال رسول الله: شرح الحديث في ألف عام» لجويل بليشر، و«إعادة اكتشاف التراث الإسلامي» لأحمد الشمسي، و«العلاقات الدولية في الإسلام» للعلامة الكبير محمد حميد الله، و«أنثروبولوجيا الفقه الإسلامي: التعليم والأخلاق

والاجتهاد الفقهي في الأزهر» لأربيا نكيسا، و«تطور المنطق العربي» و«تاريخ الفكر الإسلامي في القرن السابع عشر» كلاهما لخالد الرويهد.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المراجع الأكاديمية التي يحرص المركز على ترجمتها ونقلها إلى العربية؛ إذ سبق أن نشر في العام الماضي الترجمة العربية لـ«مرجع أكسفورد في الفقه الإسلامي وأصوله وتاريخه»، والعزم معقودٌ على ترجمة أعمال أخرى تتعلق بعلم الحديث وتاريخ الفكر الإسلامي وقضايا المرأة المسلمة.

وبعدُ، فإننا بترجمتنا لهذا الكتاب الحافل نتيح لقراء العربية نافذة جديدة يمكنهم الإطلاع من خلالها على آخر ما أنتجته الأكاديمية الغربية في حقل الدراسات القرآنية. وإننا لعلّى ثقةٍ من أن هؤلاء القراء سيستقبلون هذا الكتاب بالاهتمام الذي يستحقه والتقدير الذي يكافئ ما بُذل فيه من جهد تأليفًا وترجمةً.